قراءة في كتاب «العقلانية النقدية عند كارل بوبر» (2 من 2)

الخارجون من المجتمعات المنغلقة لديهم نزعة الارتداد للماضي ويجب محاربة ايديولوجية الحنين بالفكر الحر

دعوة للعمل من اجل جعل الحياة اقل خطرا وظلما والعقلانية الطوباوية ارتكبت جرائم بحق الاجيال

عرض: د. سعيد بوخليط

هيغل وحربان

أغلب أفكار هيغل، تم التعبير عنها سابقا مع هيراقليطس وأرسطو وكذا فلاسفة الأنوار، يشير بوبر. كما أن إسهامات هيغل الشخصية، تخفي وراء التحليلات العميقة والغامضة تراجعا عن مكتسبات العقلانية.

تبقى للديالكتيك وفق الترسيمة والخطاطة الهيغلية: الأطروحة ـ نقيض الأطروحة ـ التركيب أهميته. قد يكون وصفا مستساغا لبعض التطورات الفكرية، لكن كذلك من اللازم تجنب بعض الالتباسات: «ليست الأطروحة هي التي (تنتج) من ذاتها نقيض الأطروحة ولكن وضعنا النقدي. كما أن التركيب لا يتأتى من (الصراع) بين الأطروحة ونقيض الأطروحة ولكن بالتأكيد عن صراع بين أفكار كثيرة» (ص 33).

رغم ذلك، هناك تصور قد يظهر هيغل بمثابة مبدع حقيقي. يتعلق الشأن بكونه مؤسس ما يسمى بـ: وطنية اليمين. إلا أن بوبر يقارب هذا المفهوم بنوع من العبثية، ساعيا إلى تفنيد الأسس التي قد يتوخى تصور كهذا إيجادها من أجل تبرير خلاصاته.

أدى مفهوم وطنية اليمين وبتعهدات هيغل، إلى ظهور التأكيدات الأساسية والمسوغات التاريخية لظهور الفاشية: «مفهوم شعب موحد بفكر وطني، ومحكوم عليه بمصير واحد » (ص 33).

ليس هناك معيار مقبول حسب بوبر من أجل تحديد: الوطن. سواء إذا اعتمدنا على اللغة أو استنادا على تصور أحادي النظرة فيما يخص تطور حضارة ما، التي هي في كل الأحوال ثمرة اختلاط بين شعوب أجناس مختلفة.

فأطروحات مثل:

1 ـ ان شعبا لا يؤكد ذاته إلا بالحرب ضد شعوب أخرى.

2 ـ وان فكر الشعوب يجد أقصى تعبيره في الدولية، التي لا توجد فوقها أية أخلاق أو عدالة.

3 ـ اعتبار الفرد مجرد أداة في خدمة الدولة الوطنية.

4 ـ تمجيد أبطال وعباقرة الأمة...

أفكار وأخرى، أعطت لهيغل مسألة الريادة في إشعال حربين عالميتين وبالأخص الثانية.

في إطار الأفق نفسه، يرفض بوبر كذلك التصور التاريخاني لمقاربة المجتمع الإنساني، أي لتلك المنهجية التي: «ترتكز على تفسير الأفكار وموضوعات المعرفة، إلخ نتيجة تطور تاريخي. أو النظرية التي تكون على ضوئها الحقيقة تاريخية» (ص 34). رؤية تعتقد بمصير للتاريخ الإنساني، يتوخى هدفا معينا عبر سلسلة من المراحل الضرورية.

هذا الموقف الشمولي للتاريخانية، يجعلها ضمن المنظور الذي تبنته الطوباوية، وهي بالمناسبة أول التيارات التي جاد لها بوبر ، كلاهما يدعو إلى رؤية تغير المجتمع كليا، وليس هناك إمكانية لتقويمه جزئيا: «تتوحد التاريخانية والطوباوية في تمازج مفارق داخل أغلب النظريات الثورية. إن بوبر وهو يدافع عن سياسة إصلاحية، كان عليه إذن رفض الخاصية اللاعقلانية للأسطورة التاريخية» (ص 34ـ 35).

بعد أن سعت التاريخانية عبر العصور والحقب، الى إيجاد مبررات موضوعية لتأكيداتها. وصلت في نهاية القرن التاسع عشر، وتحت تأثير الداروينية إلى أن تأخذ شكلا علميا. أي أنه من الممكن دراسة القوانين التي تحكم المجتمع الإنساني، حيث يمكننا التنبؤ والتكهن بمستقبل المجتمع.

لكن بوبر بأطروحة كتابه Misère de l'historicisme قارب هذه الصيغة اللاعقلانية للتاريخانية انطلاقا من تأكيده على فكرة أن: «التاريخ له معنى، وكذا معرفة مراحله المستقبلية لا يمكنها أن تقوم على معرفة موضوعية بالواقعة الاجتماعية» (ص 35).

هناك نوعان من الدلائل بخصوص مسألة علمية أو لاعلمية الطرح التاريخاني:

توجد من جهة بعض الأطروحات اللاطبيعية أو «السلبية»، والتي ترفض مسألة تطبيق العلوم الفيزيائية على العلوم الاجتماعية نظرا لـ:

1ـ انتفاء الثابت في التاريخ الإنساني.

2 ـ لا يمكن لتجربة أن تتكرر: «بما أن المجتمع قادر على التعلم، فإنه لا يتفاعل أبدا مرتين بنفس الطريقة مع نفس الواقعة: من النادر أن تحدث أزمتان اقتصاديتان لنفس السبب» (ص 36).

3 ـ تداخل عالمي الملاحظ وكذا الشيء الذي يلاحظه، أي كونهما ينتميان لنفس العالم. وتظهر صعوبة ذلك خصوصا في السوسيولوجيا، فلا يمكن أن تكون الممارسة العلمية للباحث محايدة. لأن له طموحات وأهدافاً إلى جانب وجهة النظر الأولى، تلجأ التاريخانية كذلك إلى الأطروحات الطبيعية أو الوضعية، سعيا للتقريب بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية بخصوص بعض المحاور، انطلاقا من فهم، يؤكد على أن التاريخاني حتى ولو استحالت عليه مسألة إعطاء قوانين ستاتيكية لنسق اجتماعي معين، فبإمكانه البحث في القوى التي تحدث التحولات الاجتماعية ومن ثم تقديم القوانين التي تحكم تطور النسق كليا وبالتالي المراحل التي يمر من خلالها إلى المستقبل. تكفينا مثلا معرفة التناقضات التي تعيشها الرأسمالية حتى نتكهن بانهيارها وانتقال المجتمع إلى المرحلة الاشتراكية.

النقد الذي وجهه بوبر ، استبعد كليا إمكانية أن تنهض العلوم التاريخية بتنبؤات كتلك، لأنها بحسبه تفترض مفهوما مغلوطا لمناهج العلوم الطبيعية.

1ـ لا تكمن مهمة العلم في إعطاء تنبؤات مطلقة، لأن ذلك تحكمه قواعد وسياقات معينة، وعلى مستوى التنبؤات التاريخية، فلا يمكنها أن تكون شرطية إلا في نظام منغلق. والحال أن المجتمع الإنساني ليس كذلك.

2ـ لا يمكن أن تقوم قاعدة لتطور التاريخ الإنساني.

3ـ عوض البحث عن إيجاد قاعدة لذلك، يمكننا فقط وصف ميولات داخل هذا التاريخ. إلا أن الميول لا تخول الحق في التكهن. لذلك بعد أن صاغ «بوبر مجموعة من الانتقادات المنهجية في كتابه Misère de l'historicisme فإنه اقترح تفنيدا للتاريخانية أو الحتمية التاريخية مظهرا أن كل تنبؤ مطلق بالمستقبل مستحيل لأسباب محض منطقية، لأن التاريخ الإنساني في العمق، يجب التفكير فيه كشيء غير قابل للتحديد» (ص 38).

لكن حتى وإن كان هناك اختلاف بين مختلف العلوم الطبيعية والاجتماعية فإنها تستند على مبدأ وحدة المنهجية العقلانية يؤكد بوبر . لأنها توظف نفس المنهجية الفرضية ـ الاستنباطية.

دفاع عن الشروط التاريخية والحضارية

كيف دافع بوبر ، من خلال كل كتاباته عن الشروط الحضارية والتاريخية والمعرفية التي تقود بالتأكيد إلى استمرار وبقاء المجتمع المنفتح ؟ ولعل موقفه الصارم كذلك من دوغماطيقية وحتمية النظرية الماركسية، يعبر دائما عن نفس الرؤية الفكرية. وإن ظل ماركسيا أو اعتبر نفسه كذلك على الأقل لبضعة أشهر، كما أشار في سيرته الذهنية. لكن لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية مرتبطة بشروط فكرية، تخلى نهائيا عن تصورات ماركس.

ظل بوبر يرفض كل نظرية دوغماطيقية. وقد مثل مبدأه المعرفي الشهير: قابلية التكذيب Faillibilisme سلاحا كبيرا لمواجهة التبرير الحتمي والمطلق الذي يمكن أن تتوخاه أية نظرية سواء كانت معرفية أو إيديولوجية. وإن كنت أعتقد صعوبة الفصل بين المنحى الإيديولوجي والمعرفي. وقد كان لظهور الفكر الإينشتايني ونظريته النسبية من خلال الأفق المعرفي الجديد الذي أرسته، أثره الكبير على بوبر ليجعل من إينشتاين إذا نموذجه النظري أو المقابل الموضوعي لماركس. يقول بهذا الخصوص: (سيكون لفكر إينشتاين تأثير راجح على تفكيري الخاص لمدة طويلة. ربما أكثر التأثيرات أهمية) (ص 56).

لقد أظهر المسار الإينشتايني السهولة التي يستسلم بها الفرد لإغراء التوتاليتارية وانقياده وراء الأنسقة المغلقة. في المقابل سيؤكد إينشتاين على ضرورة إخضاع الفرضيات للتجربة. وقد تكفي ملاحظة سلبية واحدة حتى يتم الاعتراض على المسألة.

هناك كذلك واقعة شخصية، عاينها بوبر عن قرب أبعدته نهائيا عن الانجذاب أو التعلق بالنظرية الماركسية. يتمثل الأمر، في الحدث المأساوي الذي أدى إلى قتل كثير من الشباب الشيوعي والاشتراكي الذين كانوا قد تظاهروا أمام المفوضية المركزية للشرطة بفيينا ، بإيعاز من الشيوعيين وذلك لمساعدة بعض المعتقلين الشيوعيين على الهرب من قبضة البوليس.

لكن إطلاق هذا الأخير للنار اتجاههم أدى إلى مأساة حقيقية: «لقد أفزعتني وصدمتني شراسة البوليس، ونفسي كذلك. لأنه بدا لي كماركسي، كان لي نصيب من المسؤولية في هذه التراجيديا. تؤكد النظرية الماركسية، على أن صراع الطبقات يجب أن يتقوى حتى يتم الإسراع بمجيء الاشتراكية. تؤكد كذلك، بأنه إذا كانت الثورة يمكن أن تؤدي إلى بعض الضحايا، فإن الرأسمالية قد أغرمت فعلا بذلك أكثر من الثورة الاشتراكية بكاملها». (ص 56ـ 57). ويضيف بوبر : «لقد أدركت الخاصية الدوغماطيقية للاعتقاد الماركسي، وغطرستها الفكرية المذهلة. كان شيئا مرعبا أن تدعي نوعا من المعرفة يقتضي المجازفة بحياة الآخر من أجل عقيدة مقبولة بطريقة غير نقدية، أو سعيا وراء حلم قد لا يمكنه التحقق. إن ذلك يستوجب بالأحرى اللوم عند مفكر، أي شخص يمكنه القراءة والكتابة. لقد كان محزنا أن يتم اقتناصنا بهذا الشكل» (ص 57).

لا شك أن أهم ثوابت النظرية السياسية الماركسية، تأكيدها على أن الدولة مجرد أداة للهيمنة الطبقية ووسيلة للاستغلال السياسي لصالح الطبقة النافذة اقتصاديا. يفند بوبر هذا الطرح، مدافعا بكل قوة عن وجود الدولة، لأنه يمكنها فعلا أن تقاوم المصالح الخاصة وتحد من السلط الذاتية. وفي جميع الأحوال، ليس هناك من وسيلة للفعل إلا عن طريقها.

كما يرفض بوبر الخاصية اللاعقلانية للتاريخانية الماركسية من خلال ميلها للثورات العنيفة. قلت يمقت العنف، ويرى بأن تبني العنف الثوري أو الطريقة التي تقوم على انتظار الثورة نوعان من الخطر:

1ـ من الصعب أن تتخلص ثورة ما من ممارسة العنف على معارضيها.

2ـ يؤدي فشل الثورة إلى الفاشية نتيجة الإحساس بالخوف.

لكن على الرغم من قدرية ماركس السياسية، فإن بوبر يشير أيضا إلى الخاصية الإنسانية التي تتضمنها هذه النظرية.

ما هو المجتمع الذي يتوخاه بوبر ، وكذا ماهية الشروط السياسية والاجتماعية لهذا المجتمع المنفتح؟ الذي يشكل بكل بساطة سدا منيعا أمام كل محاولة سياسية أو اجتماعية تتوخى الارتداد إلى المجتمع المنغلق.

قبل الحديث عن خاصيات كل مجتمع على حدة، أي المنفتح والمنغلق، تجب الإشارة إلى مسألتين أساسيتين: من جهة، استعار بوبر مفهومي المنفتح والمنغلق من برغسون لكن: «بمعنى مختلف شيئا ما ووفق تمييز عقلاني وليس دينياً... للتذكير، فالمنفتح عند برغسون يتمثل في كل مجموعة (أخلاقية، اجتماعية.. إلخ). تنفلت من خنق دائرة القواعد المغلقة والصلبة، ومنفتحة على طفرة الحياة والإبداع» (ص 66ـ 67).

الشيء الثاني، هو تحديد عصر بيركليس، كلحظة تاريخية أساسية بدأ فيها الانتقال من المجتمع المنغلق إلى المنفتح. انتقال، قد يتهدده دائما زيف العقلانية الطوباوية، ثم وجود قوى تحن باستمرار إلى هذا المجتمع المنغلق.

المقارنة بين المجتمع المفتوح والمغلق

ما هي أوجه الاختلاف والتعارض بين المجتمع المنفتح والمنغلق؟

* لا يفصل المجتمع المنغلق بين قوانين الطبيعة وتلك التي جاء بها الإنسان. ويقدس كثيرا الطابوهات والإكراهات.

* في حين أن المجتمع المنفتح لائكي Laïque، ينظر إلى المؤسسات كإبداعات إنسانية.

* المجتمع المنغلق سلطوي، يرفض الفكر النقدي.

* على العكس يمكن أن نمارس منهجيا وبكل حرية الفكر النقدي داخل المجتمع المنفتح وهو ما يفسر أهمية الفلسفة والعلم داخل هذا المجتمع.

* يرفض المجتمع المنغلق كل إمكانية للتطور متوخيا البقاء مماثلا لذاته.

* على النقيض يتطور المجتمع المنفتح باستمرار، رافضا كل سكينة أو مهادنة مع ذاته.

* المجتمع المنغلق، مجتمع عشائري لا يؤمن بالفرد. من ثم ضعف تحمله الاختلاف والتعدد.

* أما المجتمع المنفتح، فيجعل من الفرد قيمته العليا. وهو ما يعطي لكل واحد الحق في أن يحدد اختياراته الشخصية، وليس هناك من مماثلة أوتوماتيكية كما يعتقد البعض استنادا إلى زعم أفلاطوني بين الفردانية والأنانية، لأنه بكل بساطة يمكن لمجموعة ما: «أن تكون أنانية والفرد غيريا، بل يمكننا القول إلى حد ما بأن الآخرية تفترض الفردانية. ألم تظهر ذلك المسيحية والكانطية بتعريفهما للأخلاق من خلال التعامل مع الشخص الآخر كغاية» (ص 68).

الحنين إلى المجتمع المنغلق، يعطي في العمق حسب بوبر إمكانية النزوع نحو التوتاليتارية. وهذه النوستالجيا تتأتى أساسا، لأن الانتقال التاريخي من المجتمع المنغلق إلى المنفتح أدى إلى إحداث صدمة للوعي الإنساني. هل هناك خوف إذن من الارتداد نحو المجتمع المنغلق؟: «الإنسان حسب التحليل النفسي ينجذب حتما وبشكل ارتدادي إلى المرحلة الطفولية (بل ومرحلة ـ قبل الولادة)، فإنه كذلك في كل مرة تظهر فيها صعوبة، يتم الانجذاب نحو نسيان الذات والانصهار في الجماعة. وكذلك الرغبة في الاحتماء من قبل قوة فوق بشرية ذات تراتب طبيعي، كل ذلك يشكل نزوعا قويا» (ص 69).

فالخروج من المجتمع المنغلق شكل «إزعاجا للحضارة»، وما زال البعض يحلم خاصة مع الفاشية وبشكل أقل مع بعض الحركات الشيوعية إلى بعث سلطوي لهذه الوحدة المجتمعية.

الوسيلة الأساسية حسب بوبر ، لكي نحارب ونهزم هذه الايديولوجيا التي تقوي الحنين إلى المجتمع المنغلق هو دعوة الأفراد لكي ينهضوا بالمجهود النقدي والدفاع عن الفكر الحر، مما سيؤدي معه إلى الإيمان الحتمي بالعقلانية النقدية والتي أوجد لها بوبر قنوات على مستوى مجموع فلسفته أي فلسفة العلوم والفلسفة السياسية من أجل أن يحل العقل النقدي محل العنف. ونتعلم أساسا: «قتل الأفكار بواسطة نقاش عقلاني عوض التضحية بحاملي هذه الأفكار» (ص 63).

عقلانية جديدة

يدعو بوبر بهذا الصدد إلى عقلانية سياسية حقيقية، مقابل الصورة العفوية التي يمكن أن تأخذها هذه العقلانية المحكومة برؤية طوباوية، والتي باسم البحث عن تحقيق السعادة للجميع، ارتكبت جرائم وجرائم في حق هذا الجميع، وتمت التضحية بأجيال وأجيال.

يعترض بوبر على التصور الذي ينطلق من مبدأ: «أن العقلاني، وحده ذلك الذي بإمكانه مقاربة المجتمع ككل. وبالتالي لا يبحث إلا في التأثير على مستوى هذا الكل. يحيل أصل هذه الفكرة على الوعي بأنه في مجتمع ما وكذا بالنسبة لكل حقيقة فإنه مغفل ومخدوع ذلك الذي لا يرى إلا أجزاءهما المتباعدة» (ص 74)، خاصة مع التحليلات الهيغلية التي أكدت على واقعية مبدأ وحدة الأجزاء داخل الكل. ثم النظرية الماركسية بعد ذلك، التي نظرت إلى المجتمع كحصيلة للصراعات الطبيعية والتمظهرات الاقتصادية لذلك. لذا أصبح الاعتقاد بأن التغير المجتمعي لا يتم إلا برؤية نسقية على مستوى المجموع وكل إصلاح جزئي محكوم عليه بالإخفاق والفشل.

ينتقد بوبر هذا المخطط «الطوباوي» ساعيا أيضا إلى إظهار وهمية توخيه العقلانية، وهو في الواقع لا يمثل إلا تراجعا إلى مستوى العماء الذاتي. دلائل بوبر بهذا الخصوص:

1 – لا يمكننا معرفة هذا الكل أو التأثير فيه. وكل نية تتغيا ذلك فإنها تلاحق الزيف: «الاعتقاد بممارسة علم يلامس الكلية الاجتماعية أو القيام بفعل كلي مسألة وهمية: الكلياني فقط شخص غير مدرك للطبيعة الانتقائية لتدخله في الواقع، لذلك يتفاعل بطريقة غير نقدية. ما يفسر خطأه خلطه بين فكرتين: كلمة (كل) تحيل سواء إلى كلية خصائص الشيء أو (بعض مميزات الشيء موضع التساؤل، تلك التي تجعله بالأحرى يبدو كبناء منظم أكثر من كونه مجرد تراكم). وحدها الكليات بهذا المعنى الثاني يمكن دراستها. لكن ينبغي أن نرى إذا أمكنها، أن تكون أقل فورية أو أكثر تجريدية، فهي في العمق كذلك جزئية مثل الخصائص الأخرى» (ص 75).

يجب أن تكون رؤيتنا للواقع وعلاقتنا به انتقائية، لأنه تستحيل كل إمكانية للضبط الكلي للمجتمع. وحتى من الناحية المنطقية، فإن كل ضبط دقيق للعلاقات الاجتماعية يؤدي مرة أخرى إلى خلق علاقات اجتماعية جديدة وهكذا دواليك أي أن عملية الضبط ترتد إلى اللانهائي. كما أن عملية المراقبة الكلية، وفق هذا المنظور الكلياني تذهب بالتأكيد إلى اختزال تعدد العلاقات وإلغاء الاختلافات.

2 ـ الدليل الثاني الذي جاء به بوبر يشير إلى: «استحالة تهيئ معرفة ضرورية قصد إيجاد مخطط كلي لمجتمع مثالي، المعرفة الوحيد التي نملك تتأتى من تجارب متفرقة. وفيما يخص المجسمات الطوباوية التي يمكننا إعدادها، فلا نملك الوسائل لاختبارها ومعرفة قيمتها» (ص 76).

يستسيغ الطوباوي العنف بسهولة، ويفترض أسوأ الديكتاتوريات والأنظمة السياسية. من الناحية البيداغوجية التعليمية، فإن المفكر الطوباوي يتحول حتما إلى شخص دوغماطيقي، لأنه يحرم نفسه إمكانية اكتشاف أخطائه وبالتالي التعلم والنجاح. فالمجرب الطوباوي، يكون مجبرا على إسكات نقدات الآخرين بالقوة إن لزم الأمر.

في مقابل كل ذلك ، يدعو بوبر إلى تبني منهجية «تجزيئية» أو بشكل من الأشكال «انتهازية». مما يتحتم معه، أن تكون للإنسان عقلانية تقنية.

سيتكلم بوبر كمصلح سياسي عن «الذهنية التكنولوجية» و«التكنولوجية المجزأة»، محددا في نفس الوقت هدف كل سياسة لحماية الناس شيئا فشيئا، للتخفيف من المعاناة وتحقيق قدر كبير من المساواة عن طريق مجموعة من المؤسسات السياسية تحمي الناس أولا ضد أنفسهم. حقا هم: «طيبون، ولكن حمقى ومتقلبون» (ص 55).

وقد وجد بوبر في الليبرالية السياسية مجموعة من المميزات أعطاها تفضيلا عنده، يقول: «أعتقد أن ما نحن قادرون عليه، هو العمل بالنسبة لكل جيل تقريبا على أن تصبح الحياة شيئا ما أقل خطرا وجورا» (ص 55). فالمهم هو السعي إلى محاربة الآلام الفعلية

كارل بوبر

والواقعية.

أما المؤسسات السياسية فإن بوبر يشبهها بالمعاقل: «قد لا تكون فعالة إلا إذا كان لها جنود ملائمون» (ص55). من اللازم أن تكون لها القدرة على جعل الأفراد أحرارا في أن يتصرفوا وفقها، ثم التعود على تحمل النقد لأنه الأداة التي تمكنها من التحسن.

أما قضية السيادة La souveraineté انطلاقا من سؤال : «من الذي يجب أن يحكم؟؟». فلا تهم بوبر ، لأن الشيء الضروري يتمثل بشكل خاص في مراقبة الحاكمين.

تلك إذن بعض أفكار بوبر السياسية، وتصوراته لكيفيات تنظيم العلاقات بين الناس ونضاله الفكري لتشييد أسس مجتمع منفتح يؤمن بالاختلاف والتعدد والمؤسسات الحرة.

لكن تظل للنظرية المعرفية العلمية والفلسفية البوبرية، أهمية قصوى في جغرافية إبستمولوجية القرن العشرين، حيث غيرت مجموعة من الثوابت والمقابليات في فهمنا للعلم والممارسة العلمية. ولا شك أن تأطير بوبر معرفيا لما يسمى ب: قابلية التكذيب، ووقوفه على قابلية النظرية المعرفية باستمرار للخطأ، شكل قطيعة مع كل دوغماطيقية علموية: «تجعلنا نعتقد بأن العلم ينفتح وينتهي على معارف مطلقة، ويخلق وهما بخصوص طبيعة العلم الحقيقية» (ص31).

اشادة دائمة بلادرية سقراط

لقد أشاد بوبر بشكل مستمر، بالمقولة السقراطية: «أعرف أني لا أعرف شيئا». وأعلن تأثره بالمسار الإينشتايني، معارضا في المقابل لماركس وفرويد لكن تنبغي أيضا الإشارة إلى ضرورة تمييز قابلية التكذيب عند بوبر، عن الشكية، حتى وإن كان هناك تداخل بين المفهومين اللذين ينتميان إلى التراث الثقافي للقرن العشرين.

إذا كان قد جعل من لاأدرية سقراط شعارا يختزل به تبسيطيا نظريته ومفهومه للمعرفة، فإن بوبر انتقد من جهة ثانية، في إطار اسم «الماهوية» l'essentialisme التصور الأرسطي الذي أكد بأن العلم يمكنه أن يسعى إلى تفسير نهائي يعمل على إدخال الماهيات، واضعا نفسه، في موقع ثالث بين الموقف الوسائلي أو الأداتي، وانحيازه لجانب من المفهوم الجاليلي للعالم، بعد أن قام بحذف جوهريته والإبقاء على العناصر التي تؤكد النقد الأداتي.

حينما ينتقد بوبر الماهوية، فإنه يتوخى ضرب تلك النظريات التي تؤكد على إمكانية صياغة نظرية للتفسيرات النهائية: «داخل ماهية العلم».. لا يمكننا أن نعرف أو نقف على الماهية أو الطبيعة الجوهرية للأشياء» (ص31).

لا يمكننا في العلم، توخي أو ادعاء إقامة نماذج تفسيرية نهائية. قد لا تعطي لذاتها إمكانية أن تكون بدورها قابلة للتفسير. فكل نظرية حسب بوبر ، عليها أن تتضمن وتحيل منذ البداية الى استراتيجيات دحضها.

يرسم بوبر لمفهومه عن «الماهوية» مسافات تطول أو تقصر ارتباطا بالبعد الإبستمولوجي الذي يريد الاشتغال عليه، يقول : «أسلم ... إراديا بالماهوية لأن أشياء كثيرة تختفي عنا وبالتالي فإن قسما منها قابل للاكتشاف. أرفض إيحاء القولة المأثورة لفتجنشتاين : «اللغز لا يوجد أبدا، ولا أتوخى أبدا انتقاد أولئك الذين يبحثون عن فهم ماهية العالم» (ص 30).

لكنه يؤكد في السياق ذاته ، بأن كل نظرية ليست إلا فرضية، أو بشكل دقيق، يعتقد بوبر بأن النظريات يمكن أن تكون مفيدة تقريبا، ثم على وجه التقريب كذلك لا يمكنها أن تكون صحيحة أو خاطئة.

وما يؤكد قطعه مع التطور الأحادي الكلياني لجدلية الصواب والخطأ كما كان الأمر مع النظرية المعرفية داخل التيارين الأساسيين في تاريخ الفلسفة: العقلانية والتجريبية. إيجاده لموقع ثالث يدافع عن الحقيقة/ التطابق، أي الحقيقة التي تطابق الوقائع، بعد أن وظف أعمال تارسكي حول الحقيقة وحساب الأنظمة.

وقد اشتق بوبر سنة 1960 مفهوم: Vérisimilitude، أو التقرب من الحقيقة. وذلك ، حتى يظهر: «بأنه ليس من باب افتقاد المعنى، التكلم عن كون نظرية خاطئة يمكنها أن تكون (أكثر قربا من الحقيقي)، مقارنة مع أخرى».. إن قولا خاطئا بإمكانه وهو يتيح فرصة استخلاص نتائج أكثر دقة، أن يكون له محتوى من الحقيقة أكثر إفادة وغنى من قول يعتبر صحيحا» (ص 77). لكن ذلك لا يعني ضرورة الاكتفاء بالأقوال والنظريات العلمية الخاطئة، فالمسألة ليست بهذا المعنى.

يحدد بوبر تعريفه للنظريات العلمية قائلا: «النظريات شبكات موجهة للقبض على ما نسميه بالعالم» (ص 70). ومهمة العلم تفسيرية أساسية، حيث يتموضع بوبر وبشكل قصدي: «ضمن المنظور الذي جاء به أمثال: بلانك وميرسون، والذين توخوا التركيز على الخاصية التفسيرية حقا للنظرية العلمية، في مقابل الاتجاهات الوضعية أو الأداتية للإبستمولوجيا المعاصرة» (ص71).

نتحدث عن تفسير واقعة ما، حينما يتم استنباطها من قاعدة عامة مع ربطها ببعض شروط الانطلاق التي يسميها بوبر بـ«الشروط الأولية»، مع ضرورة أن نتجنب تلك التفسيرات السيئة أو تفسيرات «لهذا الغرض» adhoc: «والتي ليس لها إلا الظاهرة التي تتوخى تفسيرها، وإلى حد ما التفسيرات التعميمية من نمط : «البحر هائج لأن مزاج نيبتون سيء. وهو ما يتأكد في كل مرة يكون فيها نيبتون سيء المزاج، فإنه يثير البحر» (ص 72).

تظل التفسيرات منفتحة على إمكانياتها باستمرار، لكن حتى لو وصلنا إلى أكثرها عمقا، فليست هناك تفسيرات نهائية. قد نقف على بعض ملامح خطاطة بوبر للتفسير الاستنباطي في:

ـ تساعد على الفهم النظري للعلم، كما تفسر العلم في أبعاده التطبيقية.

ـ ننتقل فيها من المقدمات المنطقية إلى الخلاصات.

ـ تستهدف إيجاد مجموعة من «الشروط الأولية» والتي تمكن من الوصول إلى أهداف معينة بناء كذلك على بعض القوانين.

ـ إمكانية توظيف نظريات زائفة لعدم توفر الأفضل.

ـ التأكيد على إمكانية أن تدحض ملاحظة واحدة النظرية بأكملها.

ـ يمكننا الحكم على قيمة نظرية قبل اختبارها استنادا على غنى محتواها.

ـ نحتاج إلى معلومات عن الكون، وليس لبداهات وحقائق غير مفيدة: «نفضل محاولة تسعى إلى معالجة مسألة غير ذات قيمة بحدس جريء. حتى ولو ظهرت على الفور خاطئة، بجردها لوقائع حقيقية لكنها بلا أهمية» (ص 74).

ـ نقف على نظرية ما بالروائز والاختبارات لتأكيدها واستخلاص: «مجموعة من التنبؤات الدقيقة بواسطة شروط أولية إضافية مع مماثلة هذه التنبؤات بالملاحظة» (ص 73).

بوبر والميتافيزيقيا

وماذا عن موقف بوبر من إشكالية القضايا الميتافيزيقية؟ سعت بوفريس إلى تصحيح معلومات عن بوبر ، تحولت مع مرور الوقت خاصة عند غير العارفين بفكر الرجل إلى بداهة. يتعلق الالتباس بتصنيفه ضمن إطار المفكرين الوضعيين وربطه بحلقة فيينا . والصواب، هو أن بوبر مفكر عقلاني، ولم يشكل أبدا طرفا في الحلقة بالرغم من علاقته بمفكري وعلماء فيينا، خاصة إذا كنا نقصد بمفهوم الوضعية هنا، كل مقاربة تفضل العلم وبالضبط العلم الطبيعي من أجل تدقيق نتائجها في تقابل مع أنواع الخطابات الأخرى.

تقول بوفريس : «بينما يتجه من جهة اهتمام الوضعيين إلى استبعاد ادعاءات المتافيزيقيا المعرفية، وقيمها الأخرى مهما كانت والتي يقبل بها بعض الفلاسفة باعتبارها نتيجة لا يمكن تجاوزها، فإن فشل المتافيزيقيا كمعرفة عقلانية، يشكل إذن رهان الوضعيين. يتوخى قسم من مجهود بوبر ، رد الاعتبار إلى الميتافيزيقيا ورؤيتها المعرفية» (ص 61).

يميز بوبر بين القضايا الفلسفية والقضايا الميتافيزيقية، مع رده الاعتبار للميتافيزيقا ضد وضعيي حلقة فيينا وكذا فتنجنشتاين الذي نفى وجود القضايا الفلسفية، فالأمر لا يعدو أن يكون مجرد مربكات Puzzle لسانية، بينما بوبر دافع عن الوجود الحقيقي للقضايا الفلسفية.

دعا الوضعيون إلى معيار التحقق كفاصل بين العلم واللاعلم، في حين جاء بوبر بمبدأ قابلية الدحض مميزا بهذا الصدد بين الحقول المعرفية والنظرية التالية:

1ـ منطق ورياضيات، حقل ما يمكن البرهنة عليه أي الفكر. غير المعرفة (الحدسية) كما تتجلى في:

2ـ المعرفة التجريبية و

3ـ الميتافيزيقا» (ص 59).

تتميز العبارة الميتافيزيقية عن النظرية العلمية، بأنها قابلة للاختبار ومن غير الممكن التحقق منها أو دحضها ، لهذا السبب يرفضها الوضعيون، فهي فاقدة للمعنى والحقيقة وكذا القيمة. على العكس يؤكد بوبر على قابلية العبارة المتافيزيقية للتدليل والنقد. وقد ألهمت بعض النظريات الميتافيزيقية العلم، بعد أن أصبحت قابلة للاختبار.

أما عن نقاش بوبر المستفيض لفكر الفيلسوف هيوم أو إعادته تقويم إشكالية هيوم ! فقد تأسس أولا وأخيرا على قضية الاستقراء L'induction التي يسميها بوبر قضية هيوم . لأن هذا الأخير هو أول من شكك في صحة الاستقراء من الناحية المنطقية.

يؤكد بوبر بأن : «الاستقراء كـ(انتقال بواسطة عدد معين من الملاحظات الجزئية إلى قاعدة عامة، مع عدم استناده في ذلك على عدد محدود من الحالات، ولكن على كل الحالات) أسطورة. فالعلم التجريبي لا يقوم على الاستقراء، لكن على التخمينات والتفنيدات» (ص 48).

مع رفض بوبر للاستقراء، اعتبر بأن النقد الذي جاء به هيوم في كتابه:

L'enquête sur l'entendement humain للأسس المنطقية للاستقراء: «جوهرة» بدون ثمن فيما يخص نظرية المعرفية» (ص 49).

ميز هيوم بين علاقات الأفكار، أي ميدان اليقين الذي يتأتى من كل تأكيد يكون حدسيا أو برهانيا يقينيا، يتجلى في الهندسة والجبر وعلم الحساب. ثم علاقات الوقائعية، والتي عكس القضايا اليقينية تتضمن التناقض: «نؤكد بامتياز فيما يخص الوقائع ، أن الشيء الوحيد بالنسبة للتجريبي يتجسد في الشهادة الفعلية للحواس وعند الاقتضاء الصلات اليقينية لذاكرتنا» (ص 49).

واستدلالات الوقائع حسب هيوم ، تقوم على علاقة السبب بالنتيجة والتي نصل إلى معرفتها عن طريق التجربة انطلاقا من العادة أو التعود ثم دور التكرار في تشكيل التعود L'accoutumance: «ليست العلية بمبدأ يدير الأشياء، بل تختزل إلى (مبدأ للطبيعة الإنسانية)، و(الحتمية شيء يوجد في الفكر وليس في الأشياء). ولا يمكن لمبدأ العلية أن يقوم بناء على عاداتنا الاستقرائية، لأنه هو ذاته ليس إلا تعبيرا لهذه العادات» (ص50). لذلك اعتبر روسل Russel بأن: (فلسفة هيوم سواء كانت صحيحة أو خاطئة، تمثل إفلاسا للقرن الثامن عشر العاقل (ص 50)، لأنه بوقوفنا مع هيوم على دلالة محض سيكولوجية للعلية قوض بلا شك من قيمة معرفتنا، وألغى كل اختلاف أو تمايز بين الفكر العلمي المضبوط وظواهر الحياة الوجدانية حتى في أشكالها اللاعقلانية.

ينهض مشروع بوبر إذن على تجاوز هذه الوضعية العبثية والمنغلقة لنظرية المعرفة عند هيوم لأنه (رمم العقلانية العلمية بحله قضية العلم التجريبي الأساسية وكذا علاقات التبرير بين نظرية عامة ثم سلسلة تعابير الملاحظة). (ص 51).

يفصل بوبر بين العلية والاستقراء. لا تحيل العلية بالنسبة إليه كما هو الأمر مع هيوم إلى قوة سيكولوجية بل توجد قياسا إلى قاعدة عامة، وينظر إلى السبب كعلاقة استنتاجية، واضعا الضرورة المنطقية وليس الطبيعية حيث يسترشد بوبر باكتشاف تارسكي Tarskiلعلم الدلالة.

يدخل بوبر مفهوم «القاعدة» في مقاربته للعلية إضافة إلى مصطلحي: «السبب» و«النتيجة». يؤدي التقاء «القاعدة» بـ«الشروط الأولية» أو السببية إلى استخلاص النتيجة. تتأسس منهجية بوبر على جدلية: المحاولة / الخطأ. تنفي كون صياغة النظريات العامة يرتبط بتراكم الملاحظات. والعلم، لا يقوم على الاستقراء، ولكن يتأتى أساسا من التخمينات والتفنيدات: (لا يمكن تأكيد عبارة عامة انطلاقا من عبارة أو عبارات خاصة ولكن يمكنها أن تدحض بواحدة منها. لا تبرهن مئة ألف إوزة بيضاء على أن كل الإوز أبيض، ولكن يكفي وجود إوزة سوداء حتى تصبح قاعدة (كل الإوز أبيض) باطلة» (ص 53).

التزييف هو الأساس الصلب لمعرفتنا. نوظف الملاحظة قصد إبطال الحدوس النظرية، وتزييف الفرضية الموجودة قبلا. لذا، فإن نظرية بوبر توفق بين التصورين العقلاني والتجريبي: التجربة تحسم النظرية، لكن إقامة النظرية لا يمكن أن تتم انطلاقا من التجربة. بهذه التوليفة المنهجية، يعتقد بوبر بأنه قد حسم في